تفسير ابن كثير

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ
أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ^{قُلْ} وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ
هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ

يخبر تعالى عن قدرته على كل شيء ، وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ، وأن
عرشه كان على الماء قبل ذلك ، كما قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش
، عن جامع بن شداد ، عن صفوان بن محرز ، عن عمران بن حصين قال : قال رسول
الله ، صلى الله عليه وسلم : " اقبلوا البشرى يا بني تميم " . قالوا : قد بشرتنا فأعطنا . قال :
" اقبلوا البشرى يا أهل اليمن " . قالوا : قد قبلنا ، فأخبرنا عن أول هذا الأمر كيف كان ؟
قال : " كان الله قبل كل شيء ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في اللوح المحفوظ
ذكر كل شيء " . قال : فأتاني آت فقال : يا عمران ، انحلت ناقتك من عقالها . قال :
فخرجت في إثرها ، فلا أدري ما كان بعدي . وهذا الحديث مخرج في صحيح البخاري
ومسلم بألفاظ كثيرة ; فمنها : قالوا : جئناك نسألك عن أول هذا الأمر فقال : " كان الله

ولم يكن شيء قبله - وفي رواية : غيره ، وفي رواية : معه - وكان عرشه على الماء ،
وكتب في الذكر كل شيء ، ثم خلق السموات والأرض " . وفي صحيح مسلم ، عن عبد
الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : " إن الله قدر
مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على
الماء " . وقال البخاري في تفسير هذه الآية : حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، حدثنا أبو
الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - قال : " قال الله عز وجل : أنفق أنفق عليك " . وقال : " يد الله ملأى لا يغيضها
نفقة ، سحاء الليل والنهار " وقال " أفرايتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ، فإنه لم
يغض ما في يده ، وكان عرشه على الماء ، ويده الميزان يخفض ويرفع " . وقال الإمام
أحمد : حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا حماد بن سلمة ، عن يعلى بن عطاء ، عن وكيع
بن عدس ، عن عمه أبي رزين - واسمه لقيط بن عامر بن المنتفق العقيلي - قال : قلت :
يا رسول الله ، أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه ؟ قال : " كان في عماء ، ما تحته هواء
وما فوقه هواء ، ثم خلق العرش بعد ذلك " . وقد رواه الترمذي في التفسير ، وابن ماجه

في السنن من حديث يزيد بن هارون به وقال الترمذي : هذا حديث حسن .وقال مجاهد :

(وكان عرشه على الماء) قبل أن يخلق شيئاً . وكذا قال وهب بن منبه ، وضمرة بن حبيب ، وقاله قتادة ، وابن جرير ، وغير واحد .وقال قتادة في قوله : (وكان عرشه على الماء) ينبئكم كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق السموات والأرض .وقال الربيع بن أنس :

(وكان عرشه على الماء) فلما خلق السموات والأرض ، قسم ذلك الماء قسمين ، فجعل نصفاً تحت العرش ، وهو البحر المسجور .وقال ابن عباس : إنما سمي العرش عرشاً لارتفاعه .وقال إسماعيل بن أبي خالد ، سمعت سعدا الطائي يقول : العرش ياقوته حمراء .وقال محمد بن إسحاق في قوله تعالى : (وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء) فكان كما وصف نفسه تعالى ، إذ ليس إلا الماء وعليه العرش ، وعلى العرش ذو الجلال والإكرام ، والعزة والسلطان ، والملك والقدرة ، والحلم والعلم ، والرحمة والنعمة ، الفعال لما يريد .وقال الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير قال : سئل ابن عباس عن قول الله : (وكان عرشه على الماء) ، عن أي شيء كان الماء ؟ قال : على متن الريح .وقوله تعالى : (ليلوكم أيكم أحسن

عملا) أي : خلق السموات والأرض لنفع عباده الذين خلقهم ليعبدوه وحده لا شريك له ، ولم يخلق ذلك عبثا ، كما قال تعالى : (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) ، وقال تعالى : (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم) [المؤمنون : 115 ، 116] ، وقال تعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) [الذاريات : 56] . وقوله : (ليلوكم) أي : ليختبركم (أيكم أحسن عملا) ولم يقل : أكثر عملا بل (أحسن عملا) ولا يكون العمل حسنا حتى يكون خالصا لله عز وجل ، على شريعة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فمتى فقد العمل واحدا من هذين الشرطين بطل وحبط . وقوله : (ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) يقول تعالى : ولئن أخبرت يا محمد هؤلاء المشركين أن الله سيبعثهم بعد مماتهم كما بدأهم ، مع أنهم يعلمون أن الله تعالى هو الذي خلق السموات والأرض ، [كما قال تعالى : (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله)] [الزخرف : 87] ، (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض [وسخر الشمس والقمر

ليقولن الله ([العنكبوت : 61] ، وهم مع هذا ينكرون البعث والمعاد يوم القيامة ، الذي هو بالنسبة إلى القدرة أهون من البداءة ، كما قال تعالى : (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) [الروم : 27] ، وقال تعالى : (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) [لقمان : 28] وقولهم : (إن هذا إلا سحر مبين) أي : يقولون كفرا وعنادا ما نصدقك على وقوع البعث ، وما يذكر ذلك إلا من سحرته ، فهو يتبعك على ما تقول .